آفاق التحليل النفسي

المحاضرة الرابعة عشرة

1.مقدمة:

لا شكَّ أنَّ التحليل النفسي يُعدّ من أبرز المناهج التي أحدثت تحوّلا عميقا في دراسة الإنسان وسلوكه، ثم امتدّت وظائفه إلى مجالاتٍ متعددة، من بينها الأدب والنقد الثقافي. وتتجلّى أسسه في مفاهيم مثل الرغبة، والكبت، واللاوعي، وهي مفاتيح أساسية لفهم الشخصية الإنسانية وما يصدر عنها من أفعال وخطابات وإبداعات. كما لا تنحصر آفاق هذا المنهج في تفسير العُقَد والصدمات النفسية، بل تمتد إلى إعادة النظر في مفاهيم الهوية، والذاكرة، والرغبة، والتمثيل، ضمن مقاربة تتداخل فيها المعرفة النفسية مع الفلسفة وعلم الاجتماع والنقد الأدبي. ومن ثمّ، فإن توظيف هذا المنهج في الدراسات الأدبية المعاصرة يظلّ رهينًا بوعيٍ نقديٍّ بحدوده وإمكاناته، حتى لا يتحوّل إلى قراءة اختزالية، بل يظلّ أفقا مفتوحا للتأويل والكشف المعرفي.

2.التحليل النفسي عند عبد القادر فيدوح

يُعَدّ عبد القادر فيدوح من النقاد الجزائريين الذين اهتموا بالتحليل النفسي ، ويظهر هذا الاهتمام من خلال كتابه "التجاه النفسي في نقد الشعر العربي" ، الذي أبدى فيه رغبه في توسيع دائرة الاشتغال بالمنهج النفسي في النقد الأدبي العربي، حيث يقول في مقدمة كتابه " ومن هذه الناحية نكون قد حاولنا الاقتراب من فضاء النص اللامحدود ،بفعل تجسيد منهج التحليل النفسي الذي ينبني على فهم معيّن للقراءة ،قوامه الغوص من مكونات الذات المبدعة العميقة الأغوار لاستكشاف مضامين هذا النص الأدبي." يُفهم من هذا أنّ الناقد فيدوح يؤكد أن القراءة النفسية ليست مجرد إسقاط لمفاهيم جاهزة على النص، بل هي محاولة لاكتشاف البنية الداخلية التي تحكم تشكّله، والكشف عن الصلات الخفية بين التجربة الشعورية للمبدع وبنيته الفنية. فالنص محمول بدلالات ضمنية تختفي فيه الرغبات المكبوتة، والهواجس، ويأتي هذا المنهج ليفكك هذه الدلالات المعقدة.

لاشك أن الناقد فيدوح متأثرا بأعمال فرويد وتلاميذه ،فيرى أن "فرويد" يشتغل في أحوال النفس الباطنية للإنسان عن طريق اتباع طريقة التحليل النفسي ،وعن طريقه يمكننا فهم حقيقة العمل الفني وعلاقة ذلك الابداع بالنفس المبدعة التي قسمها الى "اللاشعور ،الشعور، شبه الشعور، واعتبر كل عمل ابداعي ناتج عن لا وعي الفنان وأفضل مثال على ذلك ــ الاحلام ــ التي تجسد في شكل انتاج واعي (أثر فني) ،وبذلك يرى أن الانتاج الفني عند "فرويد" ماهو إلا محاولة لاستكناه الذات المبدعة وما يحيط بها من عمليات نفسية".ثم ينتقل

بنا الناقد فيدوح إلى رائد آخر من رواد التحليل النفسي، وهو آدلر صاحب نظرية عقدة النقص ،ونفس الشيء من غوستاف يونغ صاحب اللاشعور الجمعي ،يتبين لنا من خلال كلامه أن متأثر بالمدارس الغربية ،لذا جاءت دراساته النفسية من التصور الذي أسّسه سيغموند فرويد، ثم طوّره تلامذته، ليؤكد أن العمل الأدبي ليس مجرد بناء لغوي أو جمالي، بل هو أيضا رغبات مكبوتة، وصراعاتٍ نفسية داخلية، وتمثلاتٍ رمزية تتجاوز وعي المبدع ذاته. ومن هنا تتحدد آفاق التحليل النفسي عنده في ثلاثة مستويات:

- تفكيك البنية النفسية للشخصية الأدبية.
- تحليل الرموز والصور بوصفها تعبيرات عن اللاوعي.
- ربط النص بسياقه الثقافي والاجتماعي دون الوقوع في الاختزال المرضي أو الإسقاط التعسفي.

البنية النفسية للقصيدة العربية القديمة في نقد عبد القادر فيدوح

يتناول عبد القادر فيدوح مسألة الوحدة النفسية في القصيدة العربية القديمة من منظور تحليليّ نفسي، ساعيا إلى تجاوز الأحكام الشكلية التي وصفتها بالتفكك أو التقطّع الموضوعي. فهو يرى أن "تعدد الأغراض داخل القصيدة الجاهلية أو العباسية لا يعني غياب الوحدة، بل إن هذه الوحدة تتأسس على مستوى أعمق، يتمثل في النسق النفسي الذي يربط بين أجزائها. فالوحدة، في تصوره، ليست وحدة موضوع أو بناء خارجي، وإنما هي وحدة شعورية داخلية تنبع من تجربة الشاعر الذاتية، حيث تتجاور الأطلال والغزل والفخر والمدح ضمن سياقٍ نفسيّ واحد تحكمه رؤية الشاعر للعالم وإحساسه بالوجود". ومن ثمّ، فإن الانتقالات الظاهرة بين الأغراض تخضع لمنطقٍ باطنيّ تحكمه دوافع النفس وقلقها وتطلعاتها، وهو ما يجعل القصيدة بناء متماسكا على مستوى التجربة لا على مستوى التقسيم التقليدي.

وبهذا الفهم، يعيد فيدوح الاعتبار للقصيدة القديمة، معتبرا إياها بنية نفسية متكاملة "تتجسد فيها وحدة الشعور وتماسك الرؤية، وإن بدت ظاهريا متعددة الموضوعات. فالوحدة النفسية عنده هي التي تمنح النص انسجامه العميق، وتكشف عن حضور الذات الشاعرة بوصفها المحور الذي تنتظم حوله مختلف عناصر القصيدة.